خطبة صلاة الجمعة 4/ 10/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أتعبتني ذنوبي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1]، قال ابن كثير: يهدي إلى الرشد أي يهدي إلى السداد والنجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10]، قال المفسرون: معنى قوله: هيئ لنا من أمرنا رشداً: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَشَد والرُشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الثامنة في سلسلة (**دليل إرشادي**)، تتناول كلُّ خطبةٍ منها مشكلةً اجتماعيةً أسريةً أو ماليةً أو أخلاقيةً وقع فيها عدد منا، وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتقدم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى تعينه على تبصر طرق الحل، وتمكنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزة تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة؛ لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **أتعبتني ذنوبي**

المسألة: أنا شاب أحب ربي وأخاف أن أعصيه، يؤلمني الذنب وتوجعني المعصية وتبكيني المخالفة، غير أني أقع في ذنب منذ حين، أتألم لفعله وأتوب وأندم وأعاهد ربي ألا أعود، غير أنه لا تمر بي فترة حتى أعود إليه، وأتوب مجدداً ثم تراني أعود، بت أستحيي من ربي أن أعود إليه بالتوبة وأنا فيها كاذب، ناجيته بقولي: أعني عليّ فإني عدوي وأنت عليم بكل الخفايا، غير أني لا زلت أسقط في الذنب، وقد أتعبتني ذنوبي، فبماذا تنصحني؟!.

الدليل الإرشادي:

في الدليل ثلاث فقرات: استئناف التوبة أعلى منازل السائرين، الزم باب ربك، كن مع الصادقين.

أولا: استئناف التوبة أعلى منازل السائرين:

اعلموا أيها الإخوة وأيتها الأخوات أن تجديد التوبة واستئنافها وملازمَتها أعلى منازل السائرين، ففي السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلةٍ تلو الأخرى، تجتمع حينا وتتتابع حينا آخر، بعض هذه المنازل يمر بها السالك فيتحقق بها ثم يغادرها إلى غيرها، وبعض هذه المنازل يمر بها فيصحبها معه في سيره ويمضي إلى غيرها.

ومن منازل السائرين التي يبتدأ السالك بها الطريق فيتحقق بها ثم يصحبها طيلة سيره وسلوكه منزلة التوبة، يتوب فيبدأ الطريق ثم تزل قدمه في المسير فيعاود التوبة، ثم يقصر فيتوب، ثم يذنب فيرجع، ثم يقع فينهض، وهكذا.

فلا ينفك العبد عن التوبة مادام في العين رِمش يطرِف وما دام في الصدر قلب يخفِق.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «**أَذْنَبَ عبد ذنباً، فقال: اللَّهم اغْفِرْ لي ذَنْبي، فقال تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عَبدِي ذَنباً فَعَلِمَ أنَّ لَهُ ربّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ، ثم عاد فَأذْنَب، فقال: أيْ رَبِّ، اغْفِرْ لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أَذْنَبَ ذَنباً، فعلم أنَّ لَهُ ربّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، ويأخذ بالذَّنْب، ثم عاد فَأذْنَبَ، فقال: أي ربِّ، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عَبدِي ذَنباً فعلم أن له رباً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ،**

اعْمَلْ ما شئْتَ، فقد غفرتُ لك» قال الراوي: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: **«اعمل ما شئتَ»**؟! وفي رواية قال في الثالثة: **«قد غفرتُ لعبدي، فليفعل ما شاء»**.

قال العلماء: (منزل التوبة من أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية كحاجته إليها في البداية، وقد قال الله تعالى ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور: 31] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، قال تعالى ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ [الحجرات: 11] قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»** وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم "**«رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور»**" مائة مرة، فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها).

أيها الإخوة:

تعلمون أن آخر سورة نزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم هي سورة النصر، وفيها ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3]، وتعلمون أن السورة التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 1، 2]، وتعلمون أن أفضل ذكر بعد إتمام الصلاة هو الاستغفار وأن أفضل ذكر لمن أفاض من المزدلفة بعد أدائه أعظم مناسك الحج الاستغفار ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 199]، كل هذا ليعلمنا الله تعالى أن العبد لا ينفك عن التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى في أول طريقه وأوسطه ومنتهاه، وأن التوبة من أول منازل السالكين وأن استئناف التوبة آخرها، فلا ييأسن رجل من ذنب ولا يقنطن عاص من رحمة ولا يتعبن شاب من عود إلى الله تعالى، ولو عاد في اليوم مائة مرة.

أتعبتَني يا قلبُ في دنيا هواكَ تِيهاً ولا أدري متى تلقى مُناكَ

مالي إذا حاولتُ أن أدنو لربي أبعدتَني عنه كأنّي مِن عِداك

تشتاقُ روحي للسما شوقَ المساكينِ أحتاجُ أنْ أسمو وأنْ أدعو رباً يداويني

لكنّ قلبي كلّما أهفو يمنيني

يا مَنْ دنا منّي إلى حدِّ الشرايينِ بلْ كانَ في ألطافِه يدنو ليدنيني

ربّاه في دنيا الهوى لا لا تخليني

فمن كان حاله تجديد التوبة واستئنافها فليحمد الله وليدم على ما هو فيه، وليعلم أنه على خير، وليذكر أن أعلى منازل السائرين استئناف التوبة.

ثانياً: الزم باب ربك:

الزم باب ربك، فإنه من أدمن قرع الباب يوشِك أن يُفتِحَ له، وإنك مهما لزمت باب الملك بالتوبة والإنابة، وبالدعاء والاستغفار فإنه يُفتَح لك وتجاب

أَخلِقْ بذي الصبرِ أن يحظى بحاجتِه ومدمنِ القرع للأبواب أن يلجا

حصل لبعض العارفين شرود وإباق من سيده، فرأى في بعض السكك باباً قد فتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مرتجاً، فتوسّده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم **«لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»** وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!.

فإذا تمكَّن منك ذنب أو معصية فَاحذر أن تغادر باب ربك أو أن تبتعد عنه، بل اضرع إليه وناد عليه واطلب منه أن يدفع ذلك عنك، فالضراعة إلى الله من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، والدُّعاء سلاح المؤمن، وإن الله تعالى يحبُّ الملحِّين في الدُّعاء.

قال صلى الله عليه وسلم: «**دعْوةُ ذِي النُّونِ إذ دعا في بطنِ الحوتِ، قال: لا إله إلا أنت، سبحانك، إنِّي كنت من الظَّالمين، فإنَّه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**» [الترمذي].

ثالثاً: كن مع الصادقين:

فقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، كن معهم في مجالس العلم تحفك الملائكة، وكن معهم في مجالس الذكر تنزل عليك السكينة، وكن معهم في الصحبة فتصدقُ كما يصدقون ويذكرُك الله بما يذكرهم به.

ختاماً – أيها الإخوة:

نقول للأخِ صاحبِ المسألة: جاء في الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني: غفرتُ لك على ما كان منك، ولا أُبالي، يا ابنَ آدم، لو بلغتْ ذنوبُك عَنَانَ السماء، ثم استغفرتني: غَفَرْتُ لك، ولا أُبالي**» [الترمذي]، فالزم باب ربك ضارعاً، وعد إليه كلما ابتعدت نادماً مستغفراً، واجهد أن تقضي أوقاتك مع الصالحين الصادقين، واحذر أن يبعدك الشيطان عن ربك متعللاً بكثرة ذنوبك وعيوبك، فإنْ وسوَسَ لك بذلك فرُدَّ همزه ونفثه بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، والله أعلم.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول اللهﷺ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

والحمد لله رب العالمين